النظام الادبي

بين الحيوانات[1]

يسلم معظم المتعلمين بأن الحيوانات العليا متصفة بالذكاء وان كانت درجته أدنى من درجة ذكاء الانسان . ولكن يندر بينهم من تراه مستعداً للتسليم بأن الحيوانات تشاطرهم قواعد النظام الادبي الذي يسود الحياة فالنظام الادبي في نظرهم صفة خاصة بالانسان. ولكن الباحث يستطيع ان يكشف بين الحيوانات ألواناً من التصرف يصح ان تحسب أساساً للنظام الادبي وأهمها أربعة

١ — ﴿ حق التملك ﴾ ان الحضارة الصناعية راسية على ما يعرف بحق التملك . وجانب كبير من قوانيننا المدنية يدور على هذا الحق . أتستغرب أيها القارىء اذن اذا قلنا لك ان حق التملك معروف عند الحيوانات كذلك وانها تدافع عنهُ ؟

ان حق التملك هذا مشاهد بين الحيوانات من أعلاها الى السمك ولكنهُ على اوضح ما يكون بين الحيوانات العليا . فالطيور مثلاً تدعي حق تملكها للعش الذي تقطنه وللمنطقة التي تجاوره كذلك . وبعض العقبان لا تسلم لمنافس من العقبان ان يشاطرها المناطق الخاصة بها . أما حق التملك عند القردة فيمتد الى كل شيء له قيمة في نظرها . فالباحث « برهم » Brehm يذكر ان « بابوناً » عني بقسمة من العصير لسبب ما فصار يأخذها معهُ كل ليلة الى المكان الذي ينام فيه ويعالجها كأنها ملكه الخاص . والفردينس Alverdes راقب قرداً أسيراً كان يلعب بكرات من المطاط وقطع من الخشب فصار يحتفظ حتفاً شديداً اذا مسها أحد لان هذه الاشياء ملكه الخاص . واذا جاز لنا ان نفسر أفعال الحيوانات كما نفسر أفعال الناس صحَّ لدينا أن نقول انها متصفة بحسّ التملك وانها تدرك حقها في التملك نتيجة سبقها الى بقعة من البقاع او الى استعمالها شيئاً من الاشياء كحق الغزو او الفتح بين الشعوب

٢ — ﴿ الالم الادبي ﴾ لا ريب في انك ايها القارىء لاحظت تصرف كلب من الكلاب عند ما أنبهُ صاحبه أو نهره . فهو لا يفر من أمامه كأنهُ يخشى ان يلكمهُ او يلطمه بل يظل قريباً من صاحبهِ أو بالحري يقترب منهُ وفي عينيهِ معنى التوسل وقد يحاول أن يلحس يدي صاحبهِ . فهذا التصرف ليس قائماً على خوف الكلب من العقاب . فعلى ماذا يقوم ؟

وقد قام بين الالمان عالم يدعى كوهلر قضى سنوات في مستعمرة من القردة المعروفة باسم

(١) ملخص مقال للكاتب الطبي جيمس لوه في مجلة هاربرز الاميركية

شمانزي في جزيرة تناريف ووضع كتاباً جعل عنوانه « عقلية القردة » فذكر فيه القصة التالية :

لاحظت في أحد الأيام وأنا أطعم طائفة من القردة مجتمعة حولي ان احدى الاناث تنتزع الطعام من أحد الذكور الضعاف . فنهرتها وضربتها . فتراجعت الى الوراء وصرخت ثم جعلت تحدق بي واذا بها في اللحظة التالية قد رمت ذراعيها حول عنقي ولم تستقر حتى ربتُّ لها على ظهرها . وهذه ظاهرة غير عادية في حياة القردة الانفعالية . فالذي يتأثر به الكلب والقرد ليس الخوف من العقاب الاليم ضرباً أو لكماً بل هذه الحيوانات تصاب اذا ضربت أو أقصيت عن جماعتها بألم أدبي هو من قبيل الألم الذي تصاب به اذا فاتك أو أفصاك من نحب

٣ — ﴿ العطف والمساعدة ﴾ ان السخاء والمساعدة الصادرين من انسان لا غرض له ولا غاية خاصة من أجلّ الصفات الادبية في الانسان وأسماها . وقد لوحظت هذه الصفات حيثما في الحيوانات . فالطيور من نوع معين تتصرف بعضها مع بعض تصرفاً لو شاهدناهُ في الانسان لدعوناهُ « الحنان » . ولعلَّ هذه الصفة أي صفة الحنان تبدو على أروعها في الفيلة — بصرف النظر عن القرود . فاذا جرح فيل برصاصة أصابتهُ تهرول البهِ الفيلة التي على مقربة منهُ لاغاثتهِ . فاذا وقع الجريح ركع بعضها الى جانبهِ فيمنع بعضها أترابه تحتهُ ويلف البعض الآخر خراطيمه حول عنقه بغية انهاضه . ولكن القردة تفوق حتى الفيلة في هذا . ففي الكتب التي وسمها العلماء ودوَّنوا فيها حياة القردة نجد أمثلة عديدة على ذلك ولكننا نكتفي بذكر مثال واحد منقول من كتاب طومانيس في « ذكاء الحيوانات » . وهو ان ذكراً من الحيوان وقع من شجرة فأصيب في معصمهِ . فنال عناية خاصة من القردة الاخرى . وخاصة من قردة عجوز مع انها لم تكن تتصل بهِ بصلة نسب . فكانت قبل أن تبدأ طعامها تأخذ أول قطعة من الطعام تتقدم اليها وتعطيه إياها . وقد قال طومانيس انهُ في خلال مراقبته للقردة مدة طويلة لاحظ انهُ اذا صرخ قرد ما صرخة ألم أحاط بهِ جمهور من القردة وأحاطوه بعطفهم ولم يكن من النادر أن يحيطوه كذلك بأذرعهم كما نفعل نحن الناس بطفل متوجع

٤ — ﴿ الشكر والاعتراف بالجميل ﴾ ومن الصفات الادبية التي تلاحظ في القردة صفة الشكر والاعتراف بالجميل . فالعلامة وهلر الالماني يذكر حادثة أقفل فيها الباب خطأً على قردين فاضطرَّا ان يبقيا خارجه وكان الجوّ بارداً ماطراً . وكانا واقفين أمام الباب ينتظران وعلى وجهيهما أمارات الخوف إذ مرَّ بهما فتح لهما الباب . ولكنهما بدلاً من أن يسرعا الى الدخول تأخر كل منهما قليلاً لكي يشكر لصاحبه هذا الخير بوضع ذراعيه حول عنقه . ولو كان الغرض من هذا المقال رسم صورة تامة لحياة الحيوانات من ناحية انفعالاتها لوجب أن نقول شيئاً عن حسدها وغيرتها وخوفها ولرأى القراء اذن ما يراه العلماء الذين توفروا على درس حياتها من ان هذه الحيوانات أقرب ما تكون الى الانسان من ناحية حياتها الانفعالية